تآزُرُ الخطابَيْنِ الدِّينيِّ والعِلْميِّ للتعرِيفِ بالإسلامِ والدِّفاعِ عنه

أحمد فؤاد باشا(*)

لماذا يُسلَّطُ الضَّوءُ في عَصْرِنا على تَجدِيدِ الخِطابِ الدِّينيِّ فقط دُونَ سائرِ أنواعِ الخِطاباتِ التي تَحتَاجُ هي الأُخرَى إلى إصلاحٍ وتَطوِيرٍ وتَنْقِيَةٍ، بَعدَ أن أَصابَها الخَلَلُ والضَّعْفُ والتَّلَوُّثُ؟

أَلَسْنَا بحاجَةٍ ماسَّةٍ أيضًا، وبنَفْسِ الدَّرَجَةِ، إلى تَطوِيرِ الخِطابِ التربَوِيِّ والتَّعلِيميِّ، وإلى تَرشِيدِ الخِطابِ الثقافيِّ والفِكريِّ، وإلى مُراجَعةِ الخِطابِ العِلميِّ والسِّياسيِّ، وإلى تَنقِيَةِ الخِطابِ الفنِّيِّ والإعلامِيِّ؟

أَلَسْنَا بحاجَةٍ ماسَّةٍ إذًا إلى أن يَشهَدَ واقِعُ الأُمَّةِ المتردِّي تَجدِيدًا واعِيًا ومَدرُوسًا للخِطابِ الحِضارِيِّ بكُلِّ أنواعِه، ورَبْطه بمُواجَهَةِ تَحدِّيَاتِ العَصْرِ، واسْتِشْرافِ المُستقبَلِ؟

(*) أُستاذُ الفيزياءِ، وعُضوُ مَجْمَعِ اللغةِ العربيةِ.

نَعَمْ؛ يَكتَسِبُ الخِطابُ الدِّينيُّ أهمِّيَّةً خاصَّةً بسَبَبِ قُدْسِيَّةِ الدِّينِ التي تُميِّزُه عن أنواعِ الخِطابِ الأُخرَى، لكِنَّ الاجتهاداتِ المبذُولَةَ لتَجدِيدِه لا يُمكِنُ أن تُؤتيَ ثِمارَها كامِلَةً إلَّا بالتآزُرِ والتعاوُنِ والتكامُلِ مع كُلِّ جُهودِ التَّنوِيرِ والإعمارِ في مُختلَفِ مَجالاتِ الحياةِ.

إنَّ غِيابَ الخِطابِ العِلميِّ، أو ضَعْفَه، تأصِيلًا ومُعاصَرةً، ظاهِرَةٌ سَلبِيَّةٌ في ثقافَتِنا العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، التي تَختَلِطُ فيها التصوُّراتُ الشعبِيَّةُ بالأفكارِ التقليدِيَّةِ الدِّينيَّةِ والحقائِقِ العِلميَّةِ، ولقد تجاوَزَها الفِكْرُ العِلميُّ المُعاصِرُ ضَرورَةٌ حَتمِيَّةٌ مِنْ ضَروراتِ التَّجدِيدِ الحَضارِيِّ وبِناءِ مُجتمَعِ المَعرِفَةِ والمَهارَةِ؛ انطلاقًا مِنْ أَهمِّيَّةِ العِلمِ ذاتِه كعُنصُرٍ أساسيٍّ في حَياتِنا المُعاصِرَةِ، بحَيثُ لم يَعُدْ هُناكَ أيُّ نَشاطٍ إنسانيٍّ إلَّا ويَعتَمِدُ على العُلُومِ وتِقْنِيَّاتِها في تَطويرِه والإسراعِ بإيقاعِ حَرَكتِه.

وبَقَدْرِ ما تتخَلَّفُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ عن رَكْبِ المُتقَدِّمِينَ، عِلمِيًّا وتِقْنِيًّا؛ يَكُونُ عَزْلُها عن مُقَوِّمٍ أساسِيٍّ مِنْ مُقوِّماتِ الوُجُودِ الحَضارِيِّ، بل يَكُونُ تَهدِيدُها في سَلامِها وأَمنِها الشامِلِ، بعد أن أصبَحَ ضَمانُ هذا السَّلامِ والأَمْنِ مُعتَمِدًا

بصُورَةٍ رَئيسِيَّةٍ على التفوُّقِ والتمَيُّزِ في عُلُومٍ وتِقْنِيَّاتٍ، تُوصَفُ اليومَ بأنَّها «حاكِمَةُ» العَلاقاتِ بينَ القُوَى الدَّوْلِيَّةِ، ومُوَجِّهَةٌ لحَرَكَةِ الحياةِ على الأَرْضِ.

مِنْ هُنا؛ يَنبَغِي -أَوَّلَ ما يَنبَغِي- على الخِطابِ الدِّينيِّ الفاقِهِ، والخِطابِ العِلمِيِّ التَّنْويرِيِّ، مُجتمِعَيْنِ ومُتَآزِرَيْنِ، أن يُوَضِّحا الوَظِيفَةَ الاجتماعِيَّةَ للعِلمِ النافِعِ:

أوَّلًا: في بَحثِه عن الحَقِيقَةِ، وتأمُّلِها في إطارِ رُؤيَةٍ كَونِيَّةٍ حَضارِيَّةٍ إيمانيَّةٍ.

وثانيًا: في تَسخِيرِ ما يَكتَشِفُه مِنْ حَقائِقَ للتطبِيقِ في أعمالٍ نافِعَةٍ للبَشَرِ؛ إذ إنَّ رِسالةَ العِلمِ النافِعِ لا تكتَمِلُ إلَّا بإِعمارِ الحياةِ على الأَرْضِ، وضَمَانِ إشاعَةِ الخَيرِ والأَمنِ والسَّلامِ بَينَ النَّاسِ.

إذًا، ونَحنُ نَلمَسُ في عَصرِنا الحاضِرِ مَظاهِرَ الرَّخاءِ والرَّفاهِيَةِ والمَدَنيَّةِ الرَّاقِيَةِ التي وَفَّرَتْها العُلُومُ والتِّقْنِيَّاتُ المُتقَدِّمَةُ -بدَرَجاتٍ مُتفاوِتَةٍ- للمُجتمَعاتِ البَشَرِيَّةِ؛ فإنَّنا في الوَقْتِ نَفْسِهِ نَبحَثُ عن مَخرَجٍ مِنْ حالَةِ التوَتُّرِ والقَلَقِ وغِيابِ الأَمنِ والسَّلامِ، نَتِيجَةَ لحِدَّةِ الصِّراعِ والعُنفِ في

أنحاءٍ مُختلِفَةٍ مِنَ الأرضِ، بسَبَبِ فَهْمٍ شاردٍ ومُعْوَجٍّ لتَعاليمِ الدِّينِ، واستِخْدام طائِشٍ لِتِقْنِيَّاتٍ فائِقَةِ القُدْرَةِ، وأَصبَحَ واضِحًا للعِيَانِ أنَّ كُلَّ صُوَرِ الصِّراعِ الدَّائِرِ على الأَرْضِ الآنَ لا يَحْسِمُها -بالدَّرَجَةِ الأُولَى- إلَّا التفَوُّقُ التِّقْنِيُّ النَّابِعُ مِنَ البُحوثِ المتَطَوِّرَةِ في مَنْظُومَةِ العُلُومِ «الحاكِمَةِ»، والمُنْتَهِي بمُختَرَعاتٍ وابْتِكاراتٍ قادِرَةٍ على فَرْضِ الأَمْنِ والسَّلامِ العادِلِ بالرَّدْعِ الوِقائِيِّ عِنْدَ اللُّزومِ.

ومِنْ هُنا؛ فإنَّ الدَّعوةَ إلى تَحقيقِ السَّلامِ العالَميِّ ونَشْرِ ثَقافَتِه تَنْطَوِي -مِنْ بَينِ ما تَنطَوِي- في حَقيقَتِها وجَوْهَرِها على دَعوَةٍ إلى إحرازِ التَّفَوُّقِ في العِلمِ والتِّقْنِيَّةِ، باعتبارِها المِقْيَاسَ الذي يُحدِّدُ فُرَصَ الحُلولِ السِّلمِيَّةِ للمُشكِلاتِ القائِمَةِ بَينَ المُتصارِعِينَ.

وعلى مُستوَى عالَمِنا العربيِّ والإِسلامِيِّ، يَنبَغِي أن يَهْدِفَ تَجدِيدُ الفِكرِ الدِّينيِّ إلى شَحْذِ الهِمَمِ واستِنْهاضِ العزائِمِ، نَحْوَ فَهْمِ الإِسلامِ -إِسلامِ القُرآنِ الكَرِيمِ، والسُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ المُطَهَّرةِ- فَهمًا صَحِيحًا يُساعِدُ المُسلِمِينَ على تَغييرِ حَياتِهم نَحوَ الأَفضَلِ دائمًا، ويُمَكِّنُهم مِنَ المُشارَكَةِ في

حَضارَةِ العَصْرِ بنَصِيبٍ يَتَناسَبُ مع تارِيخِهم المَجِيدِ.

كما يَنبَغِي التأكِيدُ على أهمِّيَّةِ البُعدِ العِلمِيِّ، ودَوْرِه المِحوَرِيِّ في دَعْمِ مُرتَكَزاتِ الخِطابِ الإسلامِيِّ المُعاصِرِ، وتَعمِيقِ أَثَرِه في المُسلِمِينَ وغَيرِهم؛ انطِلاقًا مِنَ الاعتِقادِ الرَّاسِخِ لَدَى الجَمِيعِ بأنَّ الأَمْنَ العِلمِيَّ والتِّقْنِيَّ هو العُنصُرُ الحاكِمُ دائمًا في كُلِّ أشكَالِ الحِوارِ، وغِيابُ هذا الأَمنِ العِلمِيِّ والتِّقْنِيِّ في عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ يَعنِي تَعطِيلَ فَرِيضَةٍ إسلامِيَّةٍ واجِبَةِ الأداءِ، كما أنَّ غِيابَ المَدَنِيَّةِ والإعْمارِ والشُّهُودِ الحَضارِيِّ يَعنِي أنَّ المُجتَمعاتِ الإسلامِيَّةَ لا تُؤَدِّي أمانَةَ الاستِخلافِ، ولا تُحقِّقُ غاياتِ الدِّينِ الذي تَنْتَسِبُ إليه.

قال تَعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وجاء في الحَدِيثِ النَّبوِيِّ الشَّرِيفِ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى في جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ؛ فَكأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[١] وهذه مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ التي أُعطِيَها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

---

(١) أخرجه التِّرمذيّ في جامعه (٢٣٤٦)، وابن ماجه في سننه (٤١٤١) من حديث عُبَيْدِ اللهِ بنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ رضي الله عنه. وقال التِّرمذيّ: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

حَيثُ يَندَرِجُ تحتَها كُلُّ ما تَعارَفْنا عليه في عَصْرِنا مِنْ صُوَرِ الأَمنِ المُختَلِفَةِ: الاجتِماعِيِّ، والصِّناعِيِّ، والغِذائِيِّ، والبِيئيِّ، إلى آخِرِه. ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ هذه المَجالاتِ تَحتاجُ إلى تَوفِيرِ الكَفاءاتِ العِلْمِيَّةِ، والمَهاراتِ الفَنِّيَّةِ، بالإضافةِ إلى الإمكاناتِ التِّقْنِيَّةِ المُتقدِّمَةِ عن طَرِيقِ التَّنمِيَةِ الحقيقيَّةِ للتربيَةِ والتعليمِ والبَحثِ العِلمِيِّ.

هذا، واللَّهُ مِنْ وَراءِ القَصْدِ، وآخِرُ دَعْوانا أنِ الحَمدُ للّهِ رَبِّ العالَمِينَ.